قصة
العُواء الأجرب
جمال بن عبد الله الحيان

رقم الإيداع الدولي :

ISBN : 890-4211-65-49050

تحقيق ومراجعة :

الشرطي الخلّ والصديق

إهداء :

وإني لممتنّ لكل قارئ مجهول ...

أشعر بالثقة والاعتزاز من صنيع الأوفياء ، فلم أعد أعبأ بتقدير المشاهير والكبار ، إني أكتب لكم الآن ، أنتم الهدف والدافع .

أحس منكم خير عزاء من نكران أهل الاختصاص من النقاد والكتاب الحساد ...

أحبكم يا قرائي ...

وأشعر بصدق أنكم تحبونني أيضا ...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

تقديم :

قال بروكريستوس : "إن كنت أطول من اللازم ؛ سأقطع قدميك .

و إذا أثبتّ أنك أفضل مني ؛ سأقطع رأسك !!"

هذه متلازمة بروكريستوس التي تشير إلى سلوك معين من الأشخاص؛ عندما يواجهون آخرين أعلى مهارة منهم ، أو أكثر موهبة ؛ فيمارسون حينها أشكالًا من الحقد عليهم ، أو يقومون بمضايقتهم .

إنهم أشخاص لا يحرزون أي تقدم ، و لا يتركون الآخرين يحرزون تقدما في الوقت نفسه !

غاضبون ، متكبرون ؛ يرون لأنفسهم مكانة أكبر مما هي عليه ،

و تجدهم في كل مكان حولنا ...

فهم على سبيل المثال الخصوم الكلاسيكيون لنا في أماكن العمل

و الفصول الدراسية و الأسرة ؛ فنحن نتحدث الآن عمن هو أكثر من مجرد "متسلق" ...

الصديق و الأخ :

الشيخ "يوسف خبيري الباعمراني" .

قلوبنا تصدح وتخفق وترقص بشتى الأحاديث ومختلف الألفاظ ، كنت كملقي الوقود على النار ، وقد أطرقت في حزن ويأس ، ملقًى أعلى التل بلا تفكير ولا إرادة ، وأنا ما زلت في ميعة الصبا ومستهل الحياة .

كانت هي امرأة تكبرني سنا ، محنكة مجربة ، صوتها في منتهى الرقة ، كان حديثنا الأول اهتزازي واعتزازي ، ذلك اللقاء العجيب ، حين أمسكت بيدي في شوق ووجد ، كنت منساقا بقوة القلب المجنون ، وأنا أهتف بروحي ، راجيا مستعطفا الرأفة في الحنو .

استرخت أصابعها في يدي برفق ولين لثوانٍ ، وبدأت في التملص حياءًا عفيفا بريئا ، فليس على الأعمى حرج ولا على المجنون ، فأيهما أنا ...!!

ذلك الشعور المضطرم المستعر الذي يمر مع الهواء باردا نشيطا ، فيولد طاقة كارثية تجعل التنفس عسيرا مرهقا ، وأنا أعيش أعلى التل كمزارع بسيط غمره الطموح لفجأة ، وتجاوز بالوعي والإدراك حدود عمره ، بمنزل ريفي بسيط ، تتسرب إليه رائحة الطبيعة والنهر ، لتمحو رائحة الأنفاس الكريهة الممزوجة بالعفونة والعطور التقليدية القوية ، فيبعث جوا جديدا في البيت .

لقد ولدت الوحدة الجو الكريه والمأفون في أرجاء الغرفة ، وتلك الدكة الخشبية التي ترتفع شبرين فوق الأرض تعفنت حتى صارت ألواحها لزجة كأنها مدهونة بالزيت ، ونور الشمس يتسرب من شبابيك عالية بحديد متشابك ، وتلك الستارة قد حالت من الشمس والريح، أميَل إلى الصفرة الكامدة ثم إلى السواد الترابي ، وعلى أطراف الشبابيك أصص

الريحان ، وأنا أنظر الآن إلى كل شيء ملتفتا إلى أدق التفاصيل ، وبيدي النحيفة المتسخة كأس شاي معطر ، وقد أصبح الموقف شديد الوضوح .

أتصنع المرح والضحك ، ولكني أشكو الهموم وأرزاء الحياة ، وسني لم تبلغ بعد الأشد ، لقد صرت طفلا غريبا وحيدا ، صوته أشبه برنين الوقود ، لا أدري كيف أمحو بؤسي وشقائي هذا ، أظن أن في خطّ هذ الأسطر تعزية وسلوى ، وأنا أكب بوجهي على الدفتر صادقا ، وعيناي مخضلتان من البكاء ، فما رمت مكاني حتى وضعت السطر الأخير وحتى تيقنت أني بائس لا محالة .

أنا ذلك الفتى النحيف ، المنقبض الجالس إلى مصباح منير ؛ منفرد بنفسي في غرفة عارية باردة ، وقد جرى الدمع على وجنتيّ كي يسقط على الدفتر كقطرات مطر تمحو بدورها كلماتي، فهذا المنظر الضارع الشاحب ، ليشعل تلك النفس القريحة المعذبة التي بدأت تذوب ، فيتهافت لها جسمي تهافت الخباء المقوض .

وحيدٌ ، هدتني الظروف فصرت لا أتقي فيها عادية بدثار ولا نار ، وآلام السهر عبثت بجفني ، وسنة نوم أغفلتني عن الذهاب إلى فراشي وسقطت مكاني .

رسمت ابتسامة شجاعة وأجبت نفسي بصوت بدا متجلجلا :

ـــ لن أموت غدا هنا .

يكفي ما أحمله في دمي من آثار البؤس كابرا عن كابر ، وانفجر داخلي ذلك العواء الأجرب، وأنا أنظر إلى السماء والسحب الهشة الصغيرة التي تشبه الغبار ، أحسست

بإلهام وأنا بميناء الشفاء بعد دعاء وتضرع دام لسنين عجاف ، ميناء اللاعودة والإقدام على الحياة .

أزلت خرقي البالية التي وعدتني الريح أنها مستعدة لتنشيفها وتجفيفها ، فلماذا هذا التكاسل والتواكل ...!!

لم أعد أسمع أصوات تلك الجراء الصغيرة ، لقد غابت عني ذكريات تلك الساعات المليئة باللاجدوى ، اغتسلت أو بالأحرى استحممت، وأنا أرتجف فوق الماء بعد أن كدت أذوب من وفرة الأوساخ والأدران ، استقبلت الأضواء الرخوة الصباحية كخيوط ذهبية تنساب من بين أشجار الصفصاف العملاقة ، والريح الباردة جعلت مني راقصا مكرها كديك مذبوح .

فإن كانت مقبرتي البحار ، فرب بطن حوت كبير ، وسأكون أسعد الموتى في أعماق المحيطات ، لقد أيقظني ذلك الحب الضامر الصامت ، فلقد أصبح مطمع أحلامي ، وقبلة قلبي ، وغاية آمالي ، ومبعث إحساسي ، كنت في نشوة من لهفتي وسروري ودموعي ، فأنا الفتى الرقيق فياض العاطفة ، البارع في الصدق ، لقد هداني قلبي لمعرفتك .

وعن وعي أفقدتني السيطرة على نفسي ، فلم تعد المشقة الآن في الكتابة ، بل في التوقف عن الكتابة ، سلكت طريق الوادي أجوب السهول وأجتاز الوديان مسافرا إليك ، صرت رقيقا حنونا مرهفا أراقب الطيور ، وأشدو معها الحياة ، اخترت لك زهرة حمراء جميلة علّك ترين فيها ذلك الإنسان الراشد الكبير .

منذ الآن فصاعدا ، تركت كل شيء باحثا عنك ، أنشد القصائد مرتجلا الكلمات متصنعا القوافي ، حتى أصابني الملل وأنهكني الجهد ، استرحت بقرب الأشجار الباسقة ، أتشجع وأتدرب على الحوار وكيف سأداري الأخذ والرد معك في الحديث ، ولا زالت تلك الوردة مزهرة عطرة ، مصرة على أن تذبل بين يديك ، وأخيرا بدأت أجد نفسي مضطرا لفرملة القلم ، لقد تعبت من الطريق ، بدأت أتعرق ، ودقات قلبي بدأت تتزايد .

ـــ أنت الآن على الضفة الأخرى من الوادي ...!!

أشرت ملوحا لك بكلتا يديّ و الزهرة الحمراء لم يبق منها سوى عود أخضر ، وأنت تضحكين على خبلي الذي لا ينقضي .

لم أعبأ بذلك ...

بدأت أحدق إليك ، وأنت تحدقين أيضا ، بكل أمل ، نراقب بعضنا البعض ...

فإلى متى سيبقى الوادي عائقا ...!!

وإلى أي مدى ستغيب عنّا القوارب ...!!

وهل أمكن أن نعرف إلى أي ركن سحيق سيقذف حبنا هذا ...!!

سأحلق مع الطيور وسأجتاز الوديان بل وحتى البحار ، ولكني سأرجع الآن ، لقد تعذر الوصال ولو كان بيدي العمر لزدت لنفسي عشرين سنة كي ألحق بك ...

سأرجع إلى أعلى التل فقد تركت الجراء بدون أكل ، تكفيني نظرتك التي سقتني الحب والقليل من الأمل ، علّني أجد قاربا في أقرب الآجال ...

انتهى بفضل الله وكرمه في 9 شتنبر 2020 م الموافق ل 21 محرم 1442 هـ